

Cahiliye Döneminde Açık İfade ile İmâ Arasında Hiciv*

Hüseyin ELHASAN

Öğretim Görevlisi, Fatih Sultan Mehmet Üniversitesi,
Arapça Hazırlık Programı
helhasan@fsm.edu.tr
<https://orcid.org/0009-0008-8655-7868>

ÖZ

Bu araştırma, zaman içinde şairlerin ve eleştirmenlerin ilgisini çeken eski ve modern bir şiir sanatı olan hiciv sanatının incelenmesiyle ilgilidir. Araştırma, bu sanat tarihine dair özgün bir inceleme ve cahiliye dönemi şairlerinin bu sanatı ele alış biçimini değerlendirmektedir. Araştırma hiciv kavramı ve bu kavramın kökleşmesi üzerine gitmiş, bu sanatın İslam öncesi dönemdeki gelişimini göstermenin yanı sıra şairlerin bu sanatta kullandıkları yöntemleri de ele almıştır. Bu araştırma, analitik istikraî/tümevarımcı yaklaşıma göre düzenlenmiştir. Buna ek olarak örnekler sunulmuş ve o örneklerde hicivın amacı ortaya çıkarılmıştır. Şairler bazen kendisini destekleyen kabilesinin gücü veya hicvettiği rakibinin zayıflığı nedeniyle kimseden korkmamışlar ve bu yüzden açık, doğrudan veya hiciv üslupla sanatını ortaya koymuşlardır. Kimi zaman desteğinin zayıf olması ya da doğrudan anlatımın zihinlerde yanlış bir algı oluşturmasından dolayı örtük bir anlatım tarzı ve tariz yöntemi kullanmışlardır. Bununla birlikte bazıları iki stili birleştirmiş ancak ikincisinin ölümcüllüğü ile ilkinin cüretkarlığı bu eserlerde belirgin olmamıştır.

Anahtar kelimeler: Hiciv Şiiri, Hiciv Sanatı, Cahiliye Şiiri, İmâ

The Satire in The Pre-Islamic Era Between The Explicit and Implicit Methods

ABSTRACT

This research is concerned with the study of a poetic art which attracted the attention of poets and critics over time. It's the art of satire. The research came on the concept of satire and the rooting of this concept, as well as showing the development of this art in the pre-Islamic era. It also dealt with the methods used by poets in this art. This research followed the explicit analytical methodology that shows the models of satire. The research concluded that the satire was presented in a direct manner. Satire can be also presented in a method of implicit exposition that carries in the minds perceptions that the direct method lacks, and in this the severe attack on the satirical opponent. However, some of them combined the two styles, but in this last approach the impact of the second was not fatal, nor the first was too bold.

Keywords: The Poetry, The Satire, The Pre-Islamic Poetry, Poetry Purposes, Explicit, Implicit

* Makale Geliş Tarihi / Received: 17.07.2022
Makale Kabul Tarihi / Accepted: 22.11.2022

الهجاء في الجاهلية بين التصريح والتلميح

ملخص

يختص هذا البحث بدراسة فن شعريٍّ قديمٍ حديثٍ قد حظي باهتمام الشعراء والنقاد على مرّ الزمان، ألا وهو فنُّ الهجاء، فيأتي البحث على هذا الفنّ في سياق دراسة تأصيليّة لتاريخه وأسلوب الشعراء في العصر الجاهلي في عرضه. وقد جاء البحث على مفهوم الهجاء وتأصيل هذا المفهوم، وكذلك عرض تطور هذا الفن في العصر الجاهلي، وتناول أيضا الأساليب التي كان يتبعها الشعراء في هذا الفن، وسينظم هذا البحث وفق المنهج الاستقرائي التحليلي، فنعرض النماذج ونقوم باستقراء غرض الهجاء فيها، وقد خلّص البحث إلى أنّ الهجاء كان يقدّم في أسلوب صريح مباشر موجه لا يخشى فيه الشاعر أحداً وذلك إتما لقوة قبيلته الداعمة له، أو لضعف خصمه المهجو، أو في أسلوب تعريض مضمّن وذلك لضعف سنده أو ليقينه أن المجاز والتعريض يحمل في الأذهان من تصورات يعدهما الأسلوب المباشر، وفي هذا شدة نيل من المهجو. على أنّ بعضهم جمع بين الأسلوبين، ولكن لم يكن لذلك وقع الثاني فتكاً ولا جرأة الأول وضوحاً.

كلمات مفتاحية: شعر الهجاء، غرض الهجاء، الشعر الجاهلي، أغراض الشعر، التصريح والتلميح.

تقديم

الهجاء فن من الفنون الشعرية قديماً وحديثاً، وطالما اعتنى به الشعراء والنقاد، فالهجاء طبيعة في النفس البشرية والناس يتفاوتون في القبح والجمال والكمال، وتماشياً مع هذا التفاوت تفاوت الهجاء لدى كل شاعر في كل عصر من العصور الأدبية. والهجاء نتيجة من نتائج حب الانتقام، ومحاوله الأخذ بالثأر في القرون الأولى، فبدلاً من التراشق بالسيوف والرماح ظهر التراشق بالسباب، فالهجاء غرض من أغراض الشعر العربي، يقوم على تقبيح شكل الفرد أو الجماعة، أو عادة من العادات وهو محاولة للتقليل والاحتقار من الشاعر للمهجو للحط منه ومن شأنه ومنزلته ومحاوله الاستهزاء والهزء به. وقد تصادفنا بين دفات الكتب الكثير من الدراسات والمقالات تناولت هذا الغرض من زاوية ما فبعضها وقف على أبعاده النفسية أو الاجتماعية أو أشار إلى العوامل المساعدة لظهوره لدى شاعر وتراجع له لدى آخر.

ونظراً لاستفاضة العلم فإن مشكلة البحث تتمثل في الوقوف على أسباب ميل الشاعر لأسلوب ما في ضوء التأثير على المهجو؟

وتكمن أهمية البحث في الوقوف على أسلوب شعر الهجاء في العصر الجاهلي بالتأصيل له، توضيحه لغة واصطلاحاً، ثم تعيين الأسباب الكامنة خلف لجوء الشاعر لأسلوب التصريح أو التعريض أو الجمع بينهما في هجائه، وما مدى فاعلية وتأثير هذه الأساليب، وتبيان أهمية كل منهما وأسبابه وأثره على المهجو. مع ذكر نماذج منتقاة من عيون الشعر العربي في الجاهلية. مستأنساً ومستفيداً من الدراسات السابقة في غرض الهجاء، فالدراسات التي تناولت هذا الغرض كثيرة منها ما تناول الاستهزاء والسخرية، التكتسب بشعر الهجاء، التهميش للآخر وغيرها. في الحقيقة كل هذه العناوين تندرج تحت شعر الهجاء، ولكن لم يقف الباحث على بحث يجيب على الأسئلة المطروحة أعلاه، وهذا ما يميز البحث بأنه سيحاول الإجابة على ذلك. ومن هذه الدراسات. وسيعتمد الباحث على المنهج الاستقرائي التحليلي في عرض موضوعه وتحليله للوصول إلى النتائج النهائية وعرضها.

مفهوم الهجاء

ورد تعريف الهجاء في المعاجم العربية في أصل مادة (ه ج و) الدالة على الشتم، فقد ذكر ابن منظور قوله: "هَجَاهُ يَهْجُوهُ هَجْواً وَهَجَاءً وَهَجَّاءً، شَتَمَهُ بِالشُّعْرِ وَهُوَ خِلافُ المَدْحِ قال الليث هو الوَقِيعَةُ في الأَشْعار" ¹.

والهجاء هو تراشق بالكلام بين شخصين أو أكثر. فقد ذكر الفيروزآبادي الهجاء قائلاً: "هَجَاهُ يَهْجُوهُ وَهَجَاءً: شَتَمَهُ بالشُّعْرِ وَهَجَّاءً: هَجَّوْتَهُ وَهَجَّاءً، وَبَيْنَهُمُ أَهْجِيَةٌ وَأَهْجُوتُ يَهْجُوتُ بِهَا، وَأَهْجَيْتُ الشُّعْرَ: وَجَدْتَهُ هَجَاءً، وَالمَهْتَجُونَ المَهْجَاوُونَ" ²، أمّا ابن فارس فقد خص الهجاء بالشعر ونفاه عمّا سواه بقوله: "هَجْوٌ هَجَاءٌ، إِذَا وَقَعَ فِيهِ بالشُّعْرِ وَذَلِكَ الهَجْوُ وَالمَهْجَاءُ المَهْجَاةُ" ³. ووفقاً لما سبق يتضح لنا أن الكلمة "هجاء" معانٍ عدّة في اللغة، ومن هذه المعاني خروجه إلى دلالات الشتم والسب بواسطة الشعر.

¹ ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، 15 / 353.

² الفيروزآبادي: القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2007م، ص 1345.

³ ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1989م، 6 / 38.

أما الهجاء اصطلاحاً فهو ما تعارف الناس عليه من معنى لكلمة أو مفردة ما، والشائع لدى الناس أن مصطلح الهجاء هو فن السب والشتم والقذف، وهذا ما يقودنا إلى القول بأنه تقييد المدح⁴.

والهجاء قائم على وصف القبيلة أو شخص منها - وقد يكون هذا للقريب أو الغريب - بصفات سيئة سواء كانت موجودة فيه أو اتهاماً باطلاً من الشاعر، ولا يخفى أن ذلك يتناقض مع العدل والمروءة العربية. وقد كان الهجاء غرضاً من أغراض الشعر العربي، فالعرب كانوا يتطرون من الهجائين ويتشائمون، لذلك كانوا يتحاشون هجاء الشعراء بشتى الوسائل كي لا يصيبهم ما صبه الشعراء عليهم من مثالب ولعنات⁵.

ولعل بعضهم ذهب إلى منحاً آخر انطلاقاً من مبدأ أن الشعر تنفيس عن المشاعر الجياشة لدى الشاعر أيّاً كانت هذه المشاعر فقد يعبر به الشاعر عن عاطفة الغضب أو الاحتقار أو الاستهزاء، ويمكن أن نسميه فن الشتم والسباب، ففي القصيدة الهجائية نجد نقائص الفضائل التي يتغنى بها المدح⁶.

وأما النقاد فقد توقفوا على باب النقائص مشيرين إلى أن الشيء يتضح بعكسه، وهذا ما ذهب إلى قدامة بن جعفر فعنده الهجاء ضد المديح، وكلما كثرت أضرار المديح في الشعر كان أهجى له⁷.

فغرض شعر الهجاء من الأغراض التي يوجهها الشعراء إلى أعدائهم وهذا يقود إلى ظهور الشعر على ألوان متباينة، وأسلحة شتى، فلما عمد الشعراء إلى المبارزة والمناقضة والمنافرة نظروا إلى خصومهم من وجوه عدة وتناولوهم من نواح كثيرة فأشفقوا حيناً وأغلظوا أحياناً⁸.

ومن زاوية أخرى لجأ البعض إلى إطلاق الأحكام وفقاً لنقاء المعاني وسلامتها من الألفاظ الخادشة، فالشعر بالنسبة لهم هو ما كان لدى قائله أو مررده القدرة على فعل ذلك أمام الرجال والنساء دون أن يحمله ذلك على الخجل والتردد مما يقوله. ويروى عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال: خير الهجاء ما

⁴ ينظر: قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار المكتبة العلمية، بيروت، ص 10.

⁵ ينظر: مجدي وهبة، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، 1984م، ص 422.

⁶ ينظر: سراج الدين محمد، الهجاء في الشعر العربي، دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان، د، ت، ص 6.

⁷ ينظر: قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص 112.

⁸ ينظر: محمد سامي الدهان، الفن الغنائي، دار المعارف، القاهرة، ط: 3، 1957 ص 5.

تنشده العذراء في خدرها فلا يقبح بمثلها"⁹. وحكى ابن سلام " عن يونس ابن حبيب أنه قال: أشد الهجاء الهجاء بالتفضيل"¹⁰.

والهجاء هو سلب الصفات الحميدة عن المهجوع، ووصمه بعكسها ومن هذه الصفات الذميمة وضع الأصل، وقلة عدد أفراد القبيلة، والبخل والجبن.... وهو يهاجم الحمق البشري من خلال سلب المهجوع ما يعتز به من فضائل ورميه بما ينقّر من الرذائل. ونفهم أن الهجاء نقيض المدح فمثلا العذر ضد الوفاء، والبخل ضد الجود، والكذب ضد الصدق، والجبن ضد الشجاعة، والجهل ضد العلم وبهذا يعبر الشاعر عن حالات الغضب والاحتقار والاستهزاء بالآخرين لأنه شعر السب والقذف والشتيم.

ومن هنا كان الهجاء أحد الأسلحة الفاعلة الفتاكة في الصراعات التي تنشأ بين القبائل أو الأشخاص، وكان الناس يتخوفون منه كتخوفهم من الرماح والسيوف إن لم يكن أكثر منها، فالجميع يدرك أثر الهجاء في الناس ولذلك كان الشعراء يتوعدون الناس بالهجاء.

ووفقاً لما سبق نتبين أن هناك علاقة وثيقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي للهجاء، فمعظمه يدور حول تقبيح صورة الإنسان سواء على المستوى الفردي أم المستوى الجماعي وهذا مظهر من مظاهر الحياة والوجود.

تطور غرض الهجاء

يرتبط الهجاء ارتباطاً وثيقاً بنفسية الإنسان ومشاعره وأحاسيسه، ولذا فالهجاء لازم الإنسان على مر العصور، وإن اختلفت وسائله وطرقه، وكان الشعر وما يزال الطريقة المثلى لفن الهجاء، فغرض الهجاء من الأغراض القديمة التي عرفها الشعر العربي، وذلك لارتباطه بالمشاعر الإنسانية، فالنبد والحقد والكراهية فطرة موجودة لدى كل إنسان. ومما يدل على انتشار فن الهجاء في جميع الحضارات القديمة ما ذهب إليه الدكتور محمد سامي الدهان في قوله: " فقد عرفت بابل من غير شك في مسرحياتها الدينية شيئاً

⁹ ينظر: ابن رشيق، العمدة، دار الجليل، بيروت، 1981، 1/ 168.

¹⁰ ينظر: العمدة، ابن رشيق، 1/ 168.

يشبه الهجاء، وشهدت مصر في قصائدها ألواناً من اللعنة على سارقي القبور والكنوز، وترنمت الصين والهند وغيرها بقصائد الهجاء في ذم الشر وهادمي السلم والمعتدين على الأصنام"¹¹.

ظل الهجاء في العصر الجاهلي مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بروح البيئة الصحراوية التي كانت قائمة على المنافسة والتنافس بين قبائلها، وكانت دلالات الهجاء تدور حول ذلك الضعف والبخل، واختلاط الأنساب.

كان دأب الشاعر في هذا العصر التعريض بالمعائب الشخصية للمهجو، انتقالاً إلى التحقير من شأن القوم والجماعة، ثم تطور الأمر بعد ذلك ليصل إلى الهجاء السياسي والأخلاقي والخلقي.

وكثيراً ما نلاحظ أن الشاعر في الجاهلية كان يتخطى هجاء الشخص الخصم وينتقل منه إلى القبيلة، فيقارن بين المهجو وقومه، فتتجسد العلاقة بين الهجاء والفخر، ونلاحظ أن الهجاء في الجاهلية قائم أيضاً على أكسابنا الأخلاقيات التي تشجع على العمل والعطاء وذلك بذمه الكسل والتراجع والفساد الأخلاقي. فالهجاء له صورة مشرفة ولم يكن فن الشتائم والسباب فقط¹².

ومعلوم أن الشعر العربي له أغراض عدّة ومقاييس ضابطة يمكن لأي دارس أن يطّلع عليها في كتب الأدب وكان الهجاء أحد هذه الأغراض التي لها طقوسها الخاصة بل هناك من ذهب إلى ربطه بالسحر والكهانة أمثال كارل بروكلمان. فإذا ما أراد الشاعر أن يهجو تراه لبس زياً خاصاً شبيهاً بزى الكهّان واستحضر بعض الحركات والتصرفات التي تشبه طقوس السحرة، فالملبس والمظهر الخاص بالشاعر له التأثير الكبير في نفوس المخاطبين أو السامعين فلبس زي الكاهن في إلقاء الشعر يثير الخوف والرهبة في النفوس ويضفي نوعاً من القدسية على الشعر بصفة عامة¹³.

ويرى كولد زيه أن الهجاء أصلاً عبارة عن تعويذة مرتبطة باعتقادات أن الجن تلهم الشاعر، فيكون كلامه ذا قوة سحرية لا يمكن تجنبها¹⁴.

¹¹ محمد سامي الدهان: فنون الأدب العربي، ص 7-8.

¹² ينظر: سراج الدين محمد، الهجاء في الشعر العربي، ص 8، 9.

¹³ ينظر: كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، القاهرة، د، ت، 1/46.

¹⁴ ينظر: المرجع السابق، 1، 46.

ومن هذه الطقوس ما فعله الشاعر لبيد حين ذهب للهجاء " فقام: وقد دهن أحد شقي رأسه، وأرخی إزاره، وانتعل نعلًا واحدة، وكذلك كانت الشعراء تفعل في الجاهلية إذا أرادت الهجاء ثم أنشأ يقول:

أَنَا لَبِيدٌ ثُمَّ هَذَا الْمُنَزَعَةُ فِي كُلِّ يَوْمٍ هَامَتِي مُقَرَّعَةُ
يُخَيِّرَكَ عَنْ هَذَا حَبِيرٌ فَاسْمَعَهُ مَهْلًا أُبَيَّتَ اللَّعْنَ لَا تَأْكُلْ مَعَهُ
إِنَّ اسْتَهُ مِنْ بَرَصٍ مُلَمَّعَهُ وَإِنَّهُ يُدْخِلُ فِيهَا إِضْبَعَهُ
يُدْخِلُهَا حَتَّى يُوَارِي أَشْجَعَهُ كَأَمَّا يَطْلُبُ شَيْئًا ضَيَّعَهُ¹⁵

ويعلق الدكتور شوقي ضيف بأن حلق الرأس من سنن الحج، وكأن شاعر الهجاء يتخذ نفس الشعائر في هجائه ليلحق بمن يجهوه الأذى بكل ضروبه¹⁶.

ورغم الاقتناع بأصالة غرض الهجاء في الجاهلية إلا أنه لم يمتاز بالغرارة مقارنة بالأغراض الأخرى فقلما ينظم الشاعر قصيدة كاملة في الهجاء، وإنما هناك نوع من الجمع والمزج مع الأغراض، ولعل أوضح شاهد لذلك نجده في عيون الشعر العربي وهي المعلقات فنلاحظ فيها الفخر والمدح والغزل بشكل واضح، حين نادرا ما نجد الهجاء.

وارتبط فن الهجاء في الشعر الجاهلي بالحروب والمنازعات والعصبية القبلية والمفاخرات وهذا كان من أهم أسباب انتشاره وتطوره بحكم المبارزات الشعرية بين شعراء القبائل. فالصراعات والحروب بين القبائل كانت ترفع صوت السيوف عنواناً للقوة الحربية وعلى المنحى الآخر يعلو صوت الهجائين والمداحين، والهجاء يجرّ هجاء ومبالغات واتهامات كثيرة متنوعة بين السب والشتم والتوصيف القبيح للفرد والقبيلة على حد سواء، ولعل هذا ما قاد أبو عمرو بن العلاء أن يصنفه في أصناف خيرها ما لا يعاب على الفتاة ترديده بقوله: " خير الهجاء ما تنشده العذراء في خدرها فلا يقبح بمثلها"¹⁷.

وقد برزت في العصر الجاهلي مجموعة من العيوب التي اصطلح الناس عليها، وعدت في أعرافهم من المعاييب التي تنقص من قيمة الإنسان، وقد أبرزها الشعراء في قصائدهم الهجائية، وظهر جلياً أثرها على

¹⁵ البغدادي: خزائن الأدب، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997، 9/ 552

¹⁶ ينظر: شوقي ضيف، العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ط:1، 1995 ص 197.

¹⁷ ابن رشيق: العمدة، 168/1.

المهجو ومن هذه الصفات: الجبن والنكوص عن مواجهة الخصوم، والبخل، والأنانية، والكسل وغير ذلك من الصفات غير المحمودة في البيئة الجاهلية.

كانت طبيعة الحياة الجاهلية قائمة على الفروق بين البشر، فلا دولة ترعى الحقوق وتعديل بين الناس تحفظ كرامتهم. وفي ظل هذا تشكلت البيئة الحاضنة للهجاء، مما حملهم على إيلاء أهمية كبيرة للهجاء محاولين تجنبه بأقصى ما يستطيعون لأثره في النفوس وانتقاصه من الكرامة. ففي وصف الأصمعي أن الهجاء هو أخطر باب في الشعر "الشعر نكدٌ بابه الشر، فإذا دخل في الخير ضعف"¹⁸.

ونتيجة إدراكهم خطر الهجاء لجؤوا إلى أخذ العهد من الشعراء بأن يمتنعوا عن فعل ذلك، ومن ذلك الشاعر عبد يغوث الحارث الذي أخذ عليه بنو تميم عدم هجائهم فقد لجأوا إلى شد لسانه بنسعة، كي يثبتوا الوعد ويتموه فلا يتعرض لهم بالهجاء مرة ثانية فقال الشاعر معبراً عن هذا في حالة الإفراج عنه وإطلاق سراحه:

أقول وقد شدوا لساني بنسعة أمعشر تيمم أطلقوا لي لساني¹⁹

أساليب الهجاء في الجاهلية

الهجاء فطرة في نفس الإنسان، وهذه الفطرة مازالت مستمرة في كل العصور وفي كل الأمكنة ما دام الناس يتفاوتون جمالا وقبحا وكمالا، ولهذا يعد الهجاء أثرا من آثار حب الانتقام والأخذ بالثأر وقد حل التراشق بالألفاظ التي تتسم بالبذاءة والسب محل التراشق بالنبال والسهام.

ونجد في الأشعار أن هناك فرق في عرض الهجاء، فمنه ماهو مقدّم بشكل مباشر وصريح وبعضه مضمّن ومبطن يحتاج لتمحيص وتدقيق لإدراك معانيه. وقد تناولت كتب الأدب ذلك وأشارت إليه، فنجد ابن رشيق يشير إلى ذلك والفرق بين كل من الأسلوبين ويفاضل في أثر كل منهما قائلاً "التعريض أهجى من التصريح؛ لاتساع الظن في التعريض، وشدة تعلق النفس به... فإذا كان الهجاء تصريحاً أحاطت به النفس علماً، وقبلته يقيناً في أول وهلة"²⁰. وقد وافقه الجرجاني -صاحب الوساطة - فيما ذهب إليه،

¹⁸ ابن قتيبة: الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة، 1999 / 1 / 60.

¹⁹ القالي: الأمالي في لغة العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1978، 3 / 133.

²⁰ ابن رشيق: العمدة، 1 / 169.

فأبلغ الهجاء عنده هو ما كان ممزوجاً بالهزل والتعريض بأسلوب يُحفظ ويدرك، أما ما كان مباشراً فهو سبٌّ وشتيم وليس للشاعر إلا النظم والوزن²¹. ولعلنا نتفق مع الرأي القائل بأن الأسلوب غير المباشر أنجع وذلك لأن فطرة النفس غالباً ما تميل إلى البحث عن الخبايا والإيجاءات أكثر منه إلى الأسلوب المباشر الذي قد يقودها إلى النفور أو التأفف لما يحتويه من مفردات أو تشبيهات.

ولتوضيح ذلك نسرّد مجموعة من الأشعار موزعة بين الأسلوب المباشر وغير المباشر مع التوضيح.

فمن صور الهجاء المباشر في العصر الجاهلي قول عنترَةَ بن شداد العبسي لقبيلة بني ضبة، وتميم، وقد استطاعت قبيلة عبس هزمتهم فكان حالهم أن تركوا نساءهم وهربوا ومن هؤلاء النساء من هي حامل أو مرضعة أو حديثة الولادة فقال عنترَةَ بين شداد:

فخلُّوا لنا عُوذَ النَّسَاءِ وَجَبُّوا عباديدَ منهم مُسْتَقِيمٌ وَجَامِحُ
وكلَّ كعوبٍ خدلة السَّاقِ فخمَةٍ لها مُنْبَتٌ في آلِ ضَبَّةٍ طامِحِ
تركنا ضراراً بين عانٍ مكبَّل وبين قَتِيلٍ غاب عنه النَّوَائِحُ²²

فهذه الأبيات تحمل في طياتها عبارات واضحة وصریحة تشير إلى النيل من الخصم وقدره ومكانته، فالشاعر عنترَةَ الحلق بقبيلتي بني ضبة وتميم العار والكسل وذلك باستهداف عرضهم وشرفهم، فهو يتناول نساءهم وهذا مما يكون سبباً لنشوب الحروب. وما حمله على الجرأة والتصريح المباشر هو قوته التي يتمتع بها ولطالما تغنى بها واعترف له بها القاصي والداني حتى إن أباه الذي كان ينكره عاد واعترف به فخراً بقوته، وكذلك قبيلته المنتصرة بفوارسها والمعروفة بأسسها وصلابتها، فهذان السببان كانا كافيان بأن يصرِّح وينال من خصمه بلا أدنى قلق أو تردد أو تفكير في العاقبة التي يمكن أن تسببها كلماته.

²¹ الجرجاني، الوساطة بين المتبني وخصومة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصطفى الحلبي، ص 27.

²² عنترَةَ بن شداد، الديوان، تحقيق: محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، القاهرة، 1964، ص 39.

وكذلك قول حسان بن ثابت الأنصاري في هجاء أمية بن خلف الخزاعي:

أَتَانِي عَنْ أُمِّيَّةَ زُرُّ قَوْلٍ وَمَا هُوَ بِالْمَغِيبِ بِذِي حِفَاظِ
سَأَنْشُرُ إِنْ بَقِيَتْ لَكُمْ كَلَامًا يَنْشُرُ فِي الْجَمَاعِ مِنْ عَكَازِ
قَوَائِي كَالسَّلَامِ، إِذَا اسْتَمَرَّتْ مَنْ الصَّمِّ الْمَعْرِفَةِ الْغَلَاظِ
تَزُورُكَ، إِنْ شَتَّوَتْ بِكُلِّ أَرْضٍ وَتَرَضَّخُ فِي مَحَلِّكَ بِالْمَقَاظِ²³

فالشاعر يهجو أمية ويبرز عيوبه وعوراته، ويشكك في نسبه أمام الجميع في سوق عكاظ، وبهذا الحُجْز الخزي والعار بالمهجو، دون الالتفات لأهمية ومكانة هذا المهجو وماهي احتمالية أن يقلق مضجع حسان، بل لعل العكس صحيح فحسان أراد أن ينال منه رغم إدراكه لمكانة أمية في قومه - وهذا من دأب الشعراء في المدح أو القدح فيلجؤون لذوي المكانة لأن ذلك أنفع لهم بكلا الحالتين على العموم- فانتشر أمره في سوق عكاظ فرد عليه أمية هاجياً بالشتم والطعن في الأصل والإهانة بأن أباه امتهن مهنة لصقت به عار الخدامة والدونية. فقال:

أَلَا مِنْ مُبْلِغِ حَسَانَ عَنِّي مَغْلَغَلَةً تَدْبُ إِلَى عَكَازِ
أَلَيْسَ أَبُوكَ فِينَا كَانَ قَيْنًا لَدَى الْقَيْنَاتِ، فَسَلًا فِي الْحِفَاظِ
بِمَا نِيًّا يَظَلُّ يَشُدُّ كِبْرًا وَيَنْفُخُ دَائِبًا لَهَبَ الشَّوْاطِ²⁴

فهو يعرض فيه بالعيوب المعنوية التي تلامس النفس البشرية أو الحالة النفسية من خلال دلالات الهجاء والتي تعتمد على سلب المهجو الصفات الحميدة وما يعتز به الإنسان العربي من نسبه، وأصله وشجاعته، وكرمه وحلمه وحماية الجار وإغاثة الملهوف وعفة وصون اللسان عن كل ما هو بذيء، ورميه بالنقيض من صفات الغدر والخسة والبخل والنسب الوضيع واللؤم. وما هذا التراشق بالكلمات بشكل مباشر بين الشعارين إلا تعبيراً عن قوة يتمتع كل منهما بها في قومه ويقين بأنهم لن يتخلوا عنه إذا جدَّ الجد وانطلقت شرارة الحرب بسبب هذه الكلمات.

²³ حسان بن ثابت، الديوان، تحقيق: عبد مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 2، 1994، ص195.

²⁴ حسان بن ثابت، الديوان، ص166

أما النابغة الذبياني وهو سيد في قومه يأترون بأمره ولا يتغاضون عن رأيه، في هجائه لعامر بن الطفيل كان واضحاً وصريحاً غير آبه بخصمه أو بأي رد قد يصدر عنه - فهو حكم شعراء العرب وسيد ذبيان فالكل يحسب له الحساب والعكس ليس صحيح- إذ سقّه رأيه ونزع منه الحكمة والكياسة والرياسة، ولعل هذا يبدو للوهلة الأولى كلاماً بسيطاً ولكن سرعان ما يغير السامع رأيه عندما يدرك أن هذا الكلام موجه لرئيس قوم هو فيهم مضرب للمثل وقدوة لعكس ما عرّض به الشاعر:

فإن يك عامر قد قال جهلاً	فإن مظنة الجهل السبب
فكن كأبيك أو كأبي براء	توافيك الحكومة والصواب
ولا تذهب بحلمك طاميات	من الخيلاء ليس لهن باب
فإنك سوف تحلم أو تناهي	إذا ما شبت أو شاب الغراب
فإن تكن الفوارس يوم حسي	أصابوا من لقائك ما أصابو ²⁵

ويعلق على هذا الهجاء ابن رشيقي بقوله: " فلما بلغ عامراً ما قال النابغة شق عليه، وقال: ما هجاني أحد حتى هجاني النابغة، جعلني القوم رئيساً، وجعلني النابغة سفيهاً جاهلاً وتحكم بي"²⁶.

الأعشى سليل اللسان وجريء الكلام ولهذا تتحاشاه الفرسان وتسكته بالدرهم الحكام. ولهذا كان الأليق به والأشد وقعاً على خصمه علقمة بن علاثة أن يصرح في هجائه حين رماه بالبخل، فأذع في وصفه وذلك بسلب أهم صفة من صفات المروءة منه ألا وهي الكرم، فلم يكتفِ بوصفه بالبخل بل بالغ بأن بخله وصل لدرجة أنه يبيت في بيته شعبان يتقلب من الغلبة، وجارته بجانبه تتقلب من جوع؛ فتغاضيه عن جوع جارته أسوأ من تغاضيه عن جوع جاره الذي قد يقوى بشكل ما على سد جوعه أما أن تكن امرأة فذلك التغاضي قمة في النذالة. ولعل هذا ما قاد الكلبي للقول بأن علقمة لم يهجع بشيء أشد عليه من هذا. فيقول:

تَبِيْتُونَ فِي الْمَشِيِّ مِلَاءً بِطُونُكُمْ وَجَارَاتُكُمْ غَرَّتِي يَبِيَّتَنَ حَمَائِصًا
فرفع علقمة يديه وقال لعنه الله إن كان كاذباً نحن نفعل هذا بجاراتنا"²⁷.

²⁵ النابغة الذبياني، الديوان، تحقيق: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 3، 1996، ص 20.

²⁶ ابن رشيقي، العمدة، 1/ 169.

²⁷ الأصفهاني، الأغاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: 1، 1994، 9/ 142.

وكذلك نجد السخرية والاستهزاء بالمهجو في هجاء الأعشى لعلقمة بن علاثة في موضع آخر إذ يوازن بينه وبين خصمه ومنافره عامر بن الطفيل:

عَلَّقَمَ مَا أَنْتَ إِلَى عَامِرٍ الناقِضِ الْأُوتَارَ وَالْوَاتِرِ
 يَا عَجَبَ الدَّهْرِ مَتَى سَوَّيَا كَمْ ضَاحِكٍ مِنْ ذَا وَكَمْ سَاخِرِ
 عَلَّقَمَ لَا تَسْفَهْ وَلَا تَجْعَلَنَّ عَرَضَكَ لِلوَارِدِ وَالصَّوَادِرِ
 وَأَلَسْتَ فِي السَّلْمِ بِسَلْمٍ نَائِلٍ وَأَلَسْتَ فِي الْهَيْجَاءِ بِالْجَاسِرِ²⁸

وقد روى البغدادي عن هذا الهجاء أن النبي ﷺ طلب من حسان أن ينشده من شعر الجاهلية، فأنشده حسان هذه الأبيات، فقال النبي ﷺ لا تنشديني مثل هذا بعد اليوم. وعندما استفسر حسان عن السبب، أجابه النبي ﷺ أنه لما ذكر أمام قيصر وكان هناك أبو سفيان وعلقمة فأبو سفيان لم يذكر النبي إلا بما فيه واقعاً وعلقمة حسّن قول أبي سفيان²⁹. وفي هذا إشارة واضحة إلى أن علقمة لم يكن كما وصفه الأعشى ولذلك كان وقع هذا الشعر عليه كبيراً.

ومن الهجاء الذي ذكر فيه المهجو وبالتصريح المباشر شعر بشر بن أبي خازم الذي سلب فيه أوساً شتى الخصال النبيلة، وقد صرح بثبات العديد من الرذائل بقوله:

إِنَّكَ يَا أَوْسَ اللَّئِيمِ مَحْتَدُهُ عَبْدٌ لِعَبْدٍ فِي كِلَابٍ تُسْنِدُهُ
 مُعْلَهَجٌ فِيهِمْ خَبِيثٌ مَقْعَدُهُ إِذَا أَتَاهُ سَائِلٌ لَا يَحْمَدُهُ
 مِثْلَ الْحِمَارِ فِي حَمِيرٍ تَرْفَدُهُ وَاللُّؤْمُ مَقْصُورٌ مِضَافٌ عَمْدُهُ³⁰

²⁸ الأعشى، الديوان، تحقيق: محمود الرضواني، مطابع قطر الوطنية، الدوحة، 2010، ص 104، 108
 صحح الأعشى في صناعة الإنشاء، أحمد بن علي القلقشندي، تحقيق: يوسف علي طويل، دار الفكر، دمشق،
 1987م، 444/1

²⁹ ينظر: البغدادي، خزانة الأدب، 3/ 370.

³⁰ بشر بن أبي خازم، الديوان، دار الكتاب العربي، بيروت، تحقيق: مجيد طراد، 1994، ص 59.

وبالنظر في هذا الهجاء نجد بشر مجرد قبيلة أوس من الفضائل والمكارم التي هي مصدر فخر واعتزاز لكل عربي، فهو يثبت لها الكثير من الصفات الخبيثة والردائل، ومن ثم يحول هذا الهجاء المباشر إلى سباب وشتم مباشر. وما حمل الشاعر على هذا هو سلاطة لسانه وقذاعة أسلوبه علاوة عن انتسابه لقبيلة أسد الشديدة البأس.

ومن التصريح بذكر اسم المهجو، والإشارة إليه بشكل مباشر، قول المتلمس يهجو عمرو بن هند مصرحاً باسمه ومعلنناً للجميع أن المهجو هو عمرو دون أي تردد أو خوف:

قُولَا لِعَمْرُو بْنِ هِنْدٍ، غَيْرَ مُتَّيِّبٍ يَا أَحْنَسَ الْأَنْفِ وَالْأَضْرَاسُ كَالْعَدَسِ
مَلِكُ التَّهَارِ، وَأَنْتَ، اللَّيْلُ، مُومَسَةٌ مَاءُ الرَّجَالِ عَلَى فَخْذِكَ كَالْعَرَسِ
لَوْ كُنْتُ كَلْبٌ فُنَيْصٍ كُنْتُ ذَا جُدَدٍ تَكُونُ إِرْبَتُهُ فِي آخِرِ الْمَرَسِ
يَعْوِي حَرِيصاً بِقَوْلِ الْقَانِصَاتِ لَهُ فُقِيحَتْ ذَا وَجْهِ أَنْفٍ تَمَّ مُنْتَكِسٌ³¹

فالمتللمس الضبعي يهجو صفة خلقية تتعلق بشكل الأنف، الذي لا يعجبه، فهو أنف يميل إلى الخنس - الأنف الأخنس هو الذي تنخفض قصبته مع ارتفاع قليل في طرفيه - وهي صفة غير محببة عند العرب، وتعد من الصفات التي تسلب جمالية وجه صاحبها بل استقبح مثل هذه الصفة عند الكلاب فما بالك أئها عند إنسان! وفي هذا قذع ومبالغة لا يخفيان على أحد. وجرأة الشاعر في هجاء نديمه القديم مصدرها قبيلته القوية ولكن السبب الرئيسي معرفته بأسرار وخفايا عمرو بن هند - سيد قومه - فكانت ممسكاً يهدد فيه خصمه ولعل هذا ما حمل عمرو بن هند إلى سفك دمه للتخلص منه بشكل نهائي.

ويتجلى الأسلوب الآخر للهجاء في التعريض بالمهجو دون ذكره المباشر أو تحديده، وهذا أسلوب متبع عادة في الأغراض الشعرية ولطالما طرقة الشعراء ولكن وقعه في الهجاء أكبر منه في الأغراض الأخرى، ولعل ذلك راجع لميل الشاعر في إطلاق العنان لخيال السامع أو حتى لنفسه في تصور هيئة وصورة المهجو وفي هذا مدعاة للمبالغة الخيالية فوق المبالغة المنطوقة، وقد يكون تجنباً للصدام المباشر مع المهجو

³¹ المتلمس الضبعي، الديوان، تحقيق: حسن الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، 1970، ص 48.

غير منتب: غير خجل، الإربة: العقدة، المرسل: الحبل، منتكس: منكس الوجه.

لضعف سند عند الشاعر أو تحسباً لمكانة المهجو وخطره. والأسلوب الكاريكاتوري نموذج جلي للتعريض بالمهجو، وفيه الشاعر يتفنن بالصاق الصفات المثيرة للسخرية بالشخص المهجو. وهو أسلوب قائم على إظهار العيوب الجسدية، مع رسم صورة ضاحكة للمهجو بتناول الشكل. وهذا ما يشرحه النقاد بأنه شكل أدبي أدواته النقد والفطنة والمزاج الساخر، وهدفه الاستهزاء والسخرية من شخص أو شيء ما.³²

ومن صور الهجاء الساخر الذي يميل إلى السخرية والاستهزاء قول النابغة الذبياني يهجو بني قريع حيث لجأ إلى التشبيه الذي زاد الأمر هجاء فشبه وجوههم بوجوه القروود دلالة على قبح المنظر على سبيل التهكم والسخرية والاستهزاء فقال:

أقارغ عوفٍ لا أحاول غيرهما وجوه قروودٍ تبتغي من تجاد³³

هم بنو قريع بن عوف بن كعب بن زيد مائة بن تميم الذين كانوا سعوا به إلى النعمان حتى تغير عليه في المعاملة، وكان النعمان قصيراً دميماً قبيح الوجه أبرش، فوجوه بني قريع وجوه بشعة في نظر الشاعر، تشبه وجوه القروود الدميمة. فالشاعر النابغة لم يربح هذا الأسلوب لخوف أو ضعف -فهو سيد قومه وأمرهم كما مرّ معنا- ولكن لما لهذا الأسلوب من إعمال للخيال وفتح لباب المبالغة في تخيل أسوأ الأحوال بالنسبة للمهجو.

هذا الشاعر الأعشى يسخر من البخيل الذي يفرع عندما يأتيه الضيف، فتصبيه الدهشة العظيمة يخاطبها الخوف الشديد فكأنما يرى أسداً أو أفعى، فيقول:

إذا زارهُ يَوْماً صَدِيقٌ كَأَمَّا يرى أسداً في بيتهِ وأساودا³⁴

ففي تجاهل ذكر اسم المهجو حط من شأنه وتهميشاً لدوره من جهة بالإضافة للنيل منه بفتح باب الخيال لما فيه من سوء وخبث، فقصص الأعشى في رفع وحط مكانة من قصد في شعره لا تخفى على أحد.

³² ينظر: ليليان هيرلانديز، دليل القارئ إلى الأدب العالمي، تحقيق: محمد الجورا، دار الحقائق، بيروت، ص 579.

³³ النابغة الذبياني، الديوان، ص 165.

³⁴ الأعشى، الديوان، ص 72.

ومنه ماهو هجاء واقعي ولكن التعريض فيه للتعميم والتحذير من الابتعاد عن الغاية أو الضياع في الرغبات على حساب الأولويات، ويصور الشاعر فيه المجهو على الوجه الحقيقي من غير زيادة أو نقصان. ولعل هذا النوع من الهجاء في العصر الجاهلي خير من نقله هم شعراء الصعاليك الذين كانوا يحرصون كل الحرص على الثبات على المبدأ وهو الجماعة ومصالحها، وعلى رأس هؤلاء الشعر سيد الصعاليك وشاعرهم عروة بن الورد ومن شعره هذه الأبيات التي يصور فيها حال الصعلوك وواقعه:

لحى الله صعلوكاً مناهُ وهُمُهُ من العيش أن يلقى لبوساً ومطعماً

يرى الخمصَ تعذيباً وإن يلقَ شبعةً يبث قلبه من قلّة الهَمِّ مبهماً

مقيماً مع المشرينَ ليس ببارح إذا نالَ جدوى من طعامٍ ومجثماً

فهو يهجو الصعلوك دنيء النفس دون غيره من الصعاليك، فهذا الصعلوك إذا أظلم الليل طاف على أماكن النحر يلتقط العظام، ويمضغها، وهذا ضعف همة، فهو يكتفي كل ليلة بقلمة تشبعه ينالها مما يتساقط من فضلات الأغنياء. وعلى الطرف الآخر يهجو عروة بن الورد الصعلوك بصفة خلقية وهي الأنانية حيث إنه يطلب المال لنفسه دون النظر إلى الفقراء كما يصفه بالكسل فهو كسول لا عمل له سوى إزالة ما علق بثيابه من الحصى والغبار، دلالة على حموله وقدارته فهو صعلوك ذليل يعيش حالة على المجتمع، ويرتضي بالحياة الوضيعة وفي المساء تجده متعباً كالبعير، ومثل هذا الصعلوك جدير بكل ملاءمة واحتقار لشأنه.

فالشعراء الذين يلجؤون إلى الهجاء الواقعي ينقلون الحقيقة كما هي دون زيف أو تشويه اعتقاداً منهم أن أثرها في ذهن السامع واقعي حيث يولد الإحساس بها والاستجابة لها، وهذا هدف سامي في الهجاء يحاول الشعراء من خلاله أن يشخصوا الداء ويظهره للناس لعل هذا التشخيص يحمل من وقع فيه على العدول والعودة لصوابه وتصحيح مساره.

الخاتمة

إن حال شعر الهجاء حال أغراض الشعر العربي الأخرى، طبعته الظواهر والخصائص بطوابع مختلفة تجسدت في أساليب متنوعة، وقد خلص الباحث في هذه الدراسة إلى النتائج التالية:

- تنوعت مواضيع شعراء الهجاء وتراوحت ما بين تناول الجانب المادي - الجسمي - لدى المهجو، أو الجانب المعنوي - الأخلاق والطباع - وقد تفاوتت من حيث النسب من شاعر لآخر.
- كان شعر الهجاء عبارة عن أبيات مضمّنة في قصائد الشعراء الطويلة، وإن كانت في قصائد مستقلة غلبت عليها القطعة أو الأبيات القليلة.
- لشاعر الهجاء طقوس وأجواء خاصة يلجأ إليها إذا ما أراد قول الشعر.
- لجأ بعض الشعراء للأسلوب الصريح المباشر في هجائهم، ولعل ذلك عائد إلى قوة الشاعر استناداً لقبيلته التي تحميه وتدود عنه، أو سلاطة لسانه التي تساعد على النيل من المهجو بطريقة يعجز فيها المهجو من الرد أو الصمود أمامه. فيما لجأ بعضهم الآخر إلى أسلوب التلميح وذلك لضعف ظهره وحماته، أو لاعتقاده بأنه مقامه فوق أن يلجأ لذكر اسم خصمه في شعره وفي هذا تخليد لذكره.
- تبيّن لنا أن وقع أسلوب التلميح أكبر من التصريح، لما في ذلك من إعمال للخيال وفتح باب للاحتتمالات التي قد تحمل في طياتها معانٍ وإفادات يكن تأثيرها أشد وقعاً من التصريح المباشر.
- أسلوب التصريح كان وقعه كبيراً مع الشخصيات الرمزية المعترّة، فاستهدافها بشكل مباشر كان ينال من مقامها ويجبرها بين الفينة والأخرى على مجارة الشاعر والنزول عند رغبته.
- لشعر الهجاء في الحروب وقع وأثر لا يقل عن أثر السيف بل قد يتجاوزه ويعلو عليه أحياناً.

المصادر والمراجع:

- ابن أبي خازم، بشر، ديوان بشر بن أبي خازم، دار الكتاب العربي، بيروت، تحقيق: مجيد طراد، 1994
- ابن ثابت، حسان، ديوان حسان بن ثابت، تحقيق: عبد مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 2، 1994
- ابن جعفر، قدامة، نقد الشعر، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار المكتبة العلمية، بيروت، 1900
- ابن رشيق، الحسن، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، دار الجيل، بيروت، 1981
- ابن شداد، عنتر، ديوان عنتر، تحقيق: محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، القاهرة، 1964
- ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، دمشق، 1989
- ابن قتيبة، عبد الله، الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة، 1999
- ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط: 3، 2020
- الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: 1، 1994
- الأعشى، ديوان الأعشى، تحقيق: محمود الرضواني، مطابع قطر الوطنية، الدوحة، 2010
- بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، القاهرة، 1977
- البغدادي، عبد القادر ابن عمر، خزنة الأدب، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997
- الجرجاني، أبو الحسن علي، الوساطة بين المتبني وخصومه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، 1966
- الدهان، محمد سامي، الفن الغنائي، دار المعارف، القاهرة، ط: 3، 1957
- الذبياني، النابغة، ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 3، 1996
- الضبيعي، المتلمس، ديوان المتلمس الضبيعي، تحقيق: حسن الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، 1970
- ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، القاهرة، ط: 1، 1995
- الفيروزآبادي، مجد الدين، القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007
- القالي، أبو علي، الأمالي في لغة العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1978م
- القلقشندي، أحمد، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق: يوسف علي طويل، دار الفكر، دمشق، 1987
- محمد، سراج الدين، المهجاء في الشعر العربي، دار الراتب الجامعية، بيروت، 2011
- هيرلانديز، ليليان، دليل القارئ إلى الأدب العالمي، تحقيق: محمد الجورا، دار الحقائق، بيروت، 1986
- وهبة، مجدي، وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، 1984